مجلة دراسات موصلية

مجلة دورية علمية محكمة ، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

تاريخ استلام البحث:٢٠١٩/١١/٢٠ تاريخ قبول نشر البحث:٢٠١٩/٨/٢٣

البعد الحضاري للسيرة النبوية قراءة فكرية في كتابات الدكتور عماد الدين خليل

The Cultural Aspect of The Prophet Biography; an Intellectual Reading of Emad addin khalil Books

أ.م.د. ايمان عبد الحميد محمد الدباغ

قسم العقيدة والفكر الاسلامي،كلية العلوم الاسلامية،جامعة الموصل

الاختصاص الدقيق: فلسفة التاريخ الحديث والمعاصر

Assist.Prof.Dr.Eman Abdulhameed Mohammed Aldabbagh

'Aqidah and Islamic Thought Department, College of Islamic Sciences,University of Mosul

Specialization: Philosophy of Modern History

مجلة دراسات موصلية

مجلة دورية علمية محكمة ، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

الملخص

لعبت السيرة النبوية بأحداثها ودلالاتها دوراً مهماً في تكوين عقل الإنسان المسلم لما وفرت له من مرتكزات أسهمت بشكل وآخر في تنمية وعيه الإسلامي في ضرورة استعادة الأمة لمرجعيتها الحضارية لتحقيق تماسكها ووحدتها، ثم إصلاح حالها وتحقيق تقدمها ونهوضها الحضاري.

فنهوض الأمم ومعاودة إخراجها واسترداد دورها يستلزم قراءة نهوضها الأول وظروفه، والذي ما كان يتحقق إلا بالاهتداء بقيم القرآن الكريم والسنة النبوية وتطبيقات السيرة النبوية، في تحقيق مقاصد الدين واسترداد شهودها الحضاري والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني.

تتضمن الدراسة قراءة فكرية عن البعد الحضاري في السيرة النبوية في كتابات الدكتور عماد الدين خليل وما تضمنته من متابعات تأسيسية موضوعية وفكرية للبعد الحضاري، فجاءت كتاباته وهي تقدم تصور متكامل عن المعطيات الأساسية في السيرة النبو ية، والدور الإنساني في استثمار هذه المعطيات وتحويلها إلى ممارسات منظورة.

Abstract

The prophet’s biography, with its events and its implications, played an important role in the formation of the Muslim human mind because it provided him with the foundations that contributed to the development of Islamic consciousness in the necessity of restoring the nation's cultural reference to achieve its cohesion and unity, and then reforming its situation and achieving its progress and civilized advancement. - The rise of the nations and the restoration of their role requires reading the conditions and conditions of their first rise, which was achieved only by guiding the values of the Holy Quran, the Prophet's Sunnah and the applications of its instructions, in achieving the purposes of religion and recovering its civilized witnesses and carrying out the burdens of succession.

The study includes an intellectual reading about the cultural dimension in the prophetic biography in the writings of dr.emad addin khalil, its institutional, objective and intellectual consequences for the cultural dimension, his writings came as it presents an integrated view of the

ISSN. 1815-8854

main data in the prophetic biography, the human role in the investment of these data into visible practices.

المقدمة

إن تقديم تصور متكامل عن المعطيات الأساسية للبعد الحضاري للسيرة النبوية يتطلب مزيداً من الإلمام بجوانبه المختلفة وإعطاء الموضوع الأولوية في الدراسة والبحث، من اجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وضع شروطه القرآن والسنة لاسيما وان القرآن الكريم قدمت مادته معطيات تاريخية غنية أشارت فيها إلى العديد من وقائع السيرة زمانيا ومكانيا.

من اجل ذلك جاءت هذه الدراسة لتوجه العقل المسلم إلى أهمية دراسة الملامح الأساسية لعقيدة الإسلام في القرآن الكريم، ودراسة نواميس الكون وسننه، ورسم العلاقة بين العقل والوحي،ووضع المعالم المعرفية دليلاً حضارياً للإنسان، واستقراء التاريخ والواقع، فضلا عن معطيات أخرى للرؤية الإسلامية التي فسحت المجال للإنسان لرسم حضارته.

وتدعو الدراسة إلى ضرورة دراسة السنة النبوية واستقصاء الأحاديث المعنية بنهوض الأمم والجماعات والدول والحضارات، ورسم القيم الايجابية وما تنطوي عليه من أبعاد حضارية، واستيعاب مراحل مسيرة الرسول (ﷺ) كلها وجعل كل مرحلة (الإنسان – الدولة الحضارة) أنموذجاً يحتذى به، لاسيما إذا مر واقع الأمة بما يماثل طبيعة تلك المرحلة ابتداءً من مرحلة بناء الإنسان المستضعف بالتوحيدوأ ابتداءً بمرحلة تزويده بالمعرفة، مرحلة- اقرأ- كمدخل وسبيل إلى التغير وإقامة دولة الإسلام ثم انتهاءا إلى مرحلة النمو والاكتمال الحضاري.

تألفت الدراسة من محورين، تناول المحور الأول **التأسيسات الحضارية في القرآن والسنة(الحديث النبوي)** وفيه إشارة إلى مرتكزين مهمين للبعد الحضاري وهما القرآن الكريم وما يتضمنه من منطلقات للرؤية الإسلامية ومفاهيم أساسية عن العقيدة والوحي والمعرفة ومهمة التسخير والاستخلاف وتوازن بين الثنائيات وتوحدها والشعور بالمسؤولية وغيرها، وأسباب عرض القرآن الكريم لمساحة واسعة للواقعة التاريخية، أما السنة(الحديث النبوي) ففيها عرض للأحاديث الشريفة التي مارست دوراً مهماً في معالجة وإيضاح الموضوعات المعنية بنهوض الأمم والجماعات والدول والحضارات، ودار المحور الثاني عن **التأسيسات الحضارية للسيرة النبوية** وفيه يتحدث عن الدوائر الثلاث لمسيرة سيرة الرسول (ﷺ) بداءً ببناء الإنسان بالتوحيد ليكون مؤهلا لحمل أعباء الرسالة الجديدة للعالم، ثم قيام دولة الإسلام وتحقيق مستلزماتها من الأمة والسيادة الداخلية والخارجية والإقليم، ثم التأسيس لحضارة إيمانية مستمدة لمنهجها من القرآن الكريم والسنة النبوية، تقوم على لقاء الوحي والوجود لتكون بديلاً متوازناً عن الحضارات الأخرى.

وقد اعتمدت الدراسة على اغلب كتب د.عماد الدين خليل والتي قدمت للدراسة معلومات قيمة تفصيلية، ولعل من أبرزها كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) وكتاب(كتابات معاصرة في السيرة النبوية) وكتاب(التفسير

ISSN. 1815-8854

الإسلامي للتاريخ) وكان لهذه المصادر أهمية بما حوته من مادة غنية في معلوماتها وهي تتابع البعد الحضاري للسيرة النبوية وتقدم تصور متكامل عن معطياته الأساسية، كما اعتمدت الدراسة على مصادر داعمة أخذت السيرة النبوية من جوانب مختلفة ككتاب(فقه السيرة النبوية) لمحمد سعيد رمضان البوطي وهو يقدم رؤية فقهية للسيرة، وكتاب(الوسيط في السيرة النبوية) لهاشم يحي الملاح وهو يقدم رؤية تاريخية للسيرة، وكتاب(فقه السيرة النبوية) لموفق سالم نوري وهو يقدم رؤية سياسية ودعوية وحركية للسيرة.

المحور الأول: التأسيسات الحضارية في القرآن والسنة(الحديث النبوي)

أولا. القرآن الكريم

١- منطلقات الرؤية الإسلامية ومفاهيمها الأساسية

يقوم الإسلام على العقيدة التي هي الأساس في بناء الدين، ومنها ينطلق الإنسان المسلم في تفسير وضبط حركاته وسلوكه وطبيعة وجوده ونشأته وغايته ومهمته في الحياة ومصيره في الآخرة، وعليها تقوم أحكام الشريعة والنظام والأخلاق في كل جوانب الحياة.

وقد بين د.عماد الدين خليل[١]، أهمية هذا الجانب أي الجانب **العقدي** في بيان الملامح الأساسية لعقيدة الإسلام في القرآن الكريم: علاقة الله بالإنسان المبنية على أسس التوحيد المطلق وتوجيه العبادة له وحده، والالتزام بشرعه والخضوع لسننه ونواميسه، وإعادة تنظيم العالم وفق شريعة الله، وكسر الحاجز المادي بالوفاق مع الجانب الروحي، وتطابق معطيات القيم العقدية (كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والايجابية والواقعية) مع معطيات الفطرة البشرية السليمة، وتطابقا مماثلا مع معطيات العقل المسلم وتطلعاته وآفاقه(خليل،٢٠٠٥أ، ص٢١-٢٢).

هذه الملامح هي ما جعلت **الوحي**(المتمثل بالقرآن والسنة) يشكل مصدراً للمعرفة والتوجيه الإسلامي وهي الكلمة التي بلغ بها الرسول محمد(ﷺ) إلى الناس كافة، وبين لهم مقاصد هذا الدين وما يحمله من أحكام وقيم ينبغي لهم أن يلتزموا بها، وجعل هناك تفاعلاً ما بين عطاء الله وتطلعات العقل في الارتقاء لتحقيق الانجاز الحضاري، عطاء أثمر عن تواعد وارتقاء، فحقق إنسانية الحضارة الإسلامية الذي رسم مسارها وحدد أهدافها الوحي (برسالة الله) وحقق انجازاتها في المستويات المتعددة (الإنسان)(بن عاشور،١٩٩٢،ص٢-٣).

ومن هذا المنطلق- أي منطلق الإيمان بوحدانية الله وهداية الله- فليس هناك تعارض ما بين ما جاء به الوحي المرسل والعقل والكون، فالوحي اختص بعالم الغيب ومقاصده في الكون والحياة ، والعقل وجه نحو عالم الشهادة لحمل مسؤوليته في أداء دوره في تسخيرها وتنظيمها وإصلاح شأنها بما أودع الله فيها من سنن ونواميس تحقيقا لخلافته في عالم الشهادة، فاوجد بذلك تكاملاً بين عالم الغيب وعالم الشهادة وبين الوحي والعقل والكون، هذا التكامل جعل من الإنسان أمام ضرورة طلب معرفة الوجود وموقعه منه في نسق منظوم متكامل تنضج به مقاصد وغايات الإسلام للإنسان.

ISSN. 1815-8854

ويجد د.عماد الدين إن الكلمة الأولى(إقرأ) التي جاءت في الكتاب الكريم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(سورة العلق، الآية:١). فضلا عن معطيات **معرفية** (إقرأ، تفكر، اعقل، تدبر، تفقه، انظر...) استطاعت أن تشكل عقل الإنسان المسلم ليكون أكثر قدرة على استيعاب المضامين المعرفية التي جاء بها الإسلام ليحرك الإنسان صوب البحث والتساؤل والجدل في متابعة الظواهر والكشف عن السنن والإفادة من الطاقات لأعمار حياته(خليل، ٢٠٠٥أ،ص٢٢-٢٣، خليل،٢٠٠٥ب،ص٢٥-٢٧، خليل،١٩٨٧،ص١٦٨-١٧٠،خليل،١٩٩١،ص١٨).

إن معرفة الإنسان بقدرة الله سبحانه في خلق الكون بعد الإيمان به والتعامل مع المعطيات العلمية التي وجدت لها أصولاً في القرآن الكريم كالعقيدة والتشريع والسلوك والحقائق(العلمية)، قادته إلى معرفة دقائق الأمور وأسرارها وحقق له التقدم والإنجاز والسعادة، ومنحته مزيداً من التألق والاكتشاف والنمو والقوة(خليل،١٩٩١،ص١٨). فإدراك العلاقة بين البعد الإيماني الغيبي والسنن التي تحكم عالم الشهادة والتفاعل معها هو بحد ذاته سيرٌ في طريق البناء الحضاري للأمة.

وقد كرم الله الإنسان وأناط به قدرة التصريف والتسخير للكون والحياة، وتطلّب منه اعتماد ما أودعه الله فيه من فطرة التدبر والتدبير، لاسيما وأنّ الله تعالى قد خلق مجانسة بين قدرة الإنسان بطاقاته العقلية والنفسية والجسمية وبين طبيعة هذا الكون، وفطر في الإنسان ما يؤهله من فهم طبيعة وأسرار وقوانين العالم والكون من حوله وتسخيرها لخدمته (الهاشمي،١٩٨٢،ص٩٢)، لذلك يرى د.عماد الدين إن الرؤية الإسلامية عندما عبرت عن فكرة **التسخير** عبرت عنه "بموقف وسطي" ذلك ان الله قد سخر العالم والطبيعة للإنسان تسخيراً يتلاءم مع مهمته الأساسية في الخلافة، وجعل العلاقة بين الإنسان والعالم علاقة إرادة وإدراك وخيار وخلافة وكرامة، لا علاقة تعبيد وتذليل وغزو وانشقاق كالذي تعكسه العديد من الفلسفات والمذاهب الوضعية(خليل،٢٠٠٥،ص٣٩-٤٠).

أما مهمة **الاستخلاف** التي أوكلها الله للإنسان وهي خلافة رعاية واعمار وإدارة، خلافة تحقق المعنى الحقيقي للعبودية في ظل العمل على تحقيق السيادة البشرية في الأرض(دسوقي،د.ت،ص٣٧-٤٠)، فيجد د.عماد الدين انه يتطلب من الإنسان تنفيذ مطالب مهمته الاستخلافية بالكشف عن السنن ونواميس الكون والطبيعة، والسعي نحو الإبداع والإعمار، والإفادة من الطاقات المدخرة، ورغم أنها مسؤولية مناط في جوهرها حرية الإرادة والقرار والإدراك إلا أنها لابد من الالتزام بالقيم والتعاليم والشرائع وإلا فإنها ستحرم المجتمعات البشرية من التحضر وسيؤول بهم الحال إلى الخراب والضياع(دسوقي،د.ت،ص٣٧-٣٩).

فالرؤية الإسلامية ترفض تعطيل عقل الإنسان والالتفاف إلى الوراء إلا لضرورات معينة، فقد ضيع المسلمون الكثير من طاقاتهم بفعل التقليد الأعمى الذي يتعارض في كثير من الأحيان مع القرآن الكريم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣)، بل كما قال د.عماد الدين هو **النزوع إلى الأمام** وان يصرف الإنسان عقله إلى النظر والتدبر والعمل في الحاضر والمستقبل، فتفتح أمام الإنسان أبواب التجريب والنظر والتنقيب في سنن الكون، والانصراف نحو بناء الحياة وحمل مسؤولية الخلافة وتنمية قدراته العلمية والتكنولوجية بدلاً من "هدر الطاقة" فيما هو خارج عن حدودها وإمكانياتها فيسمح للنظر القاصر والفكر العقيم أن يسود(خليل،٢٠٠٥،ص٣٦-٣٧).

مجلة دورية علمية محكمة ، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

كما يرى ان الرؤية الإسلامية تؤمن بأن يكون الإنسان المسلم عنصراً فعالاً وايجابياً في العالم يلتزم بالإيمان والعمل الصالح ليكون مؤهلاً بالمهمة التي أوكلها الله له: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠-١٠٥). كما إن نجاح الإنسان المسلم ليكون مؤهلا بمقاييس الحضارات المتقدمة تطلب منه قناعة تامة بجدوى هذا الدين بالتغيير وهذا ما سيأتي بالإيمان بالله، وستمكنه كما مكنت السلف الأول ناصية الإبداع وتفتح له أبواباً جديدة في مجال الحضارة، ويجد د.عماد الدين أهمية ارتباط الإيمان بالعمل، إذ عد الإيمان بمنزلة معامل حضاري يمتد أفقياً لدفع الإنسان إلى التعامل بانسجام مع حركة الكون والطبيعة بشكل يحقق العطاء والقوة والإيجابية، في الوقت نفسه يمتد عمودياً ليبعث في نفس الإنسان إحساسا بالمسؤولية ويقظة الضمير والتسابق مع الزمن في عطائه وفق معطيات الوحي والأهداف التي يسعى لبلوغها ليرتقي إلى المراحل الأعلى التقوى والإحسان(خليل، ٢٠٠٥ب، ص٩٢-٩٤، خليل، ٢٠٠٥أ،ص٤٠-٤٢، خليل، ١٩٨٦،ص١٩٤، ص٢٢٥-٢٢٦).

إن منح "التجربة الإيمانية" الحضارة مزيداً من الوحدة والخصوصية يجعلها تحقق انسجاماً مع نواميس الكون والطبيعة وتعطيها قدرات إبداعية أعمق، وهذا يعني انه لا مجال في الرؤية الإسلامية للتخريب والاستبداد والإفساد باسم العقل المتجاهل لمقاصد القرآن الكريم وغاياته وتوجيهاته، بل هي دعوة إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية والوقوف أمام كل من يعوق مسيرته ونموه، هذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية فحسب بل الجوانب الفكرية والأخلاقية والروحية والثقافية(خليل،٢٠٠٥أ،ص٤٢-٤٣).

وان أي إفساد قد يتركه الجانب المادي أو الروحي قد يترك أثرا على عقل المسلم من غبش وقصور في المقاصد والغايات والمفاهيم والقيم وما يؤول إليه من دمار حقيقي لحضارة الإنسان، لذا تطلب من الإنسان المسلم التحرك لإيقافه لئلا يتحول الإفساد إلى فتنة عمياء تمزق الأمة وتؤجج نار الصراع في صفوفها(خليل،٢٠٠٥أ)، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٦-١١٧).

وفي الرؤية الإسلامية **"التوازن بين الثنائيات وتوحدها"**، توازن تجعل من الإنسان يجمع بين الإيمان والإبداع، إذ يلحظ د.عماد الدين أن الإسلام دعا إلى توازن شمولي مترابط لا يقبل التجزؤ، ففي الوقت الذي يدعو الإنسان إلى التنقيب عن السنن والنواميس في التربة، يدعوه في البحث في صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرة(خليل،١٩٩١،ص٣٠، خليل،٢٠٠٥أ،ص٥٥)، كما يجده توازناً حركياً يرفض الانحراف أو السكون، فآيات القرآن الكريم التي تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية دائما ما تنتهي بأفعال التقوى والإيمان، ويجد أن توسيع الأهداف البشرية وربطها بأهداف أكثر سمواً يعطي الحياة قيمها الحقيقية ويمكن من تأدية الإنسان مهمته في الاستخلاف في الأرض، فالتوازن بين قيم الروح وقيم المادة هو ما أكده الإسلام ويكفل النمو السليم للحضارة، وأن أي تجربة بشرية

ISSN. 1815-8854

تجنح عن هذه المعادلة تعدّ شذوذاً وانحرافاً وتمزيقاً للذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي (خليل،٢٠٠٥أ ، ص٤٨-٤٩، خليل ،٢٠٠٥ب،ص٩٨-١٠٣، خليل،٢٠١٠،ص٢٥-٢٦)، كما أن وجود التوازن يزرع في الإنسان وازع الاطمئنان والاستقرار الذاتي بأن معالم إنسانيته هي على نسبة واحدة فالعقل والعقيدة والحس المادي والعواطف كلها متجانسة متعاونة لا خلاف بينها فحقق مظهر الكمال الإنساني، وأن الحضارة الإسلامية جاءت من أثر هذا الإنسان المنسجم في ذاته فأكسبها مما اكتسب(بن عاشور،١٩٩٢،ص٢١-٢٢).

ليس هذا فحسب، بل ان د.عماد الدين يلحظ **الميزة التحريرية** التوازنية في القرآن الكريم، كونها توافق بين رغبات الإنسان الجسدية والروحية، فالقرآن يأمر بني آدم أن يأخذوا الزينة في المساجد في الوقت الذي يكون فيه الإنسان ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ (الأعراف:٣١). ثم تعقبها دعوة أخرى للأكل والشرب شريطة أن لا يقع الإسراف ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأعراف:٣١). واستنكار الآيات على بعض أتباع الديانات المنحرفة السابقة تحريمهم الطيبات ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ (آل عمران:٩٣). أو كبت بعض جوانب الغرائز بمثابة عقاب وليس قاعدة ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ (النساء:١٦٠). وغيرها من الصور التحريرية التي عبر عنها القرآن الكريم(خليل،٢٠٠٥أ،ص٥٠-٥٤، خليل،٢٠٠٥ب،ص١٠٦-١١٠، خليل،١٩٨٦،ص٢٩٥).

لم يكتف د.عماد الدين بذلك بل أشار إلى عدد من المفاهيم الأساسية لمنهجية الرؤية الإسلامية منها **السببية** وهي مفهوم أساسي في أداء العقلية الإسلامية وفي بناء المنهج الإسلامي، فالإنسان بفطرته وعقيدته يدرك تماما حتمية وضرورية الأخذ بالأسباب في الكشف عن السنن والنواميس والسعي في أمرها بالإصلاح والأعمار، فدون السببية لا مجال للفعل الإسلامي ولا للأداء الإسلامي من بناء عقله وأداء مهمته وواجباته في خلافة الأرض والنظر والتدبر في نظام الحياة والكون (أبو سليمان، ١٩٩٤، ص١٥١-١٥٢، خليل، ٢٠١٦، البعد الحضاري للسيرة النبوية www.mugtama.com).

ويجد د.عماد الدين أن القرآن الكريم أراد أن يجتاز بالعقل المسلم مرحلة النظرة التبسيطية المسطحة المفككة التي تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت معزولة، وإعادة تشكيلها إلى عقلية تركيبية تمنحه القدرة على فهم الظواهر والأشياء والربط بين الأسباب والمسببات وصولاً إلى الحقيقة المرجوة في إدراك معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه (خليل،٢٠٠٥أ،ص٢٦-٢٧، خليل،٢٠٠٥ب،ص٢٩-٣٠)، يقول الله تعالى ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النمل:٨٨).

وإذا كان الله يطلب من الإنسان معاينة الأشياء وفهمها وربط الأسباب بالمسببات فأن الله قد هيأ للإنسان ما يمكنه من تأدية هذا الدور من خلال **النظر الحسي** والتبصر بحقيقة وجوده في الكون، وإعطاء الحواس المسؤولية عن

خطوات الإنسان وهو يتحرك باتجاه البحث والنظر والتأمل والعقل، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:٣٦).

وقد رصد د.عماد الدين آيات متعددة في القرآن الكريم وهي تدعو الإنسان إلى إمعان النظر في خلقه وطعامه وملكوته والى التبصر بحركة التأريخ ثم إلى خلائق الله وإلى النواميس الاجتماعية والطبيعة..، كما بين أهمية السمع والبصر في تمكين الإنسان في استغلال الطاقات وتحقيق التفوق العلمي والحضاري، ومعطيات أخرى كتحريك العقل والتفكر والتبصر والتفقه التي تحرك وعي الإنسان وإدراكه، لينتهي بأسلوب البرهان والحجة والجدل وهو ما يعتمده القرآن الكريم للوصول إلى النتائج القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة(خليل،١٩٨٦،ص٢٠٩-٢١٢).

ولتمكين الإنسان مما سبق لابد من تحقيق **الإرادة الإنسانية** والقرار الإنساني في صياغة المصير، سواء في خلافة الأرض والتشبث بها ومواجهة كافة التحديات المادية والخارجية واستنباط المعاني الايجابية فيها لصالح خدمة الإنسان أم أن تكون إرادة فاسدة تسعى إلى الإفساد والإسراف في الأرض فتقضي بقدراتها السلبية على التجدد والتطور والإبداع(خليل،١٩٨٦،ص٢٦٢).

ومع الإرادة يأتي **الشعور بالمسؤولية** ومن يتمكن من فهم منطلقاتها وبعدها في العقل الإنساني سيتمكن من فهم الإنسان نفسه، فشعور الإنسان بالمسؤولية تمنحه القدرة على تجاوز الغفوات والزلات والتقصير، ود.عماد الدين يقف عند ضرورة أن يشعر الإنسان بالمسؤولية ولكن يجب أن تكون "مسؤولية مستقلة" موجهة إزاء ذاته وما يترتب عليه من قرارات تحدد مصيره، فإما تسخير الكون وإدارته وإصلاحه واعماره، وإما فساد وتأخر وانحلال، على أن يتم ذلك بعيدا عن تحمل مسؤولية الأمم والجماعات الأخرى(خليل،١٩٨٦،ص٢٦٣)، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:١٣٤).

والتغير الذاتي دون **الالتزام الأخلاقي** يفقد انتقال الإنسان صوب صيغ إنسانية أفضل وتحقيق البعد الحضاري المراد، لذلك كان لابد من وجود القيم الأخلاقية التي تحقق بها تقدم المجتمع المسلم ووحدته وديمومته أو تأخره وانهياره وتراجعه، "فالقيم الأخلاقية في الإسلام ليست قيماً منفصلة، ليست حشوداً من التعاليم تقول: افعل هذا ولا تفعل ذاك، لكنها شبكة التزامات مترابطة تستهدف في نهاية التحليل وضع الإنسان المسلم في مكانه الصحيح المتوازن إزاء الذات، والمجتمع، والعالم، والكون"(خليل،٢٠١٣،ص١٩٧).

وتبقى منطلقات الرؤية الإسلامية ومفاهيمها الأساسية وغيرها تدفع الإنسان نحو العالم معتمداً على حسه وعقله وجدية التدبير والتفكير والبحث والسعي وإرادته الحرة للسنن والنواميس التي أودعها الله في النفوس والخلائق والكائنات، وحمل مسؤوليته في عالم الأسباب وجدية الأخذ بالأسباب والتزامه القيمي المستمد من مصدر الوحي والرسالة الربانية والتزامه بالغايات والمقاصد، كلها عوامل تساعد على بناء الذات الإنسانية وتمكنه من القدرة و العطاء والتجديد والإصلاح المستمر في الحياة.

ISSN. 1815-8854

٢- الواقعة التاريخية في القرآن

تكمن أهمية دراسة الواقعة التاريخية في القرآن الكريم في منح البشرية مزيداً من المعرفة الكاملة والخصوصية والثقة بالذات، والإفادة من الماضي لبناء الحاضر ورسم حدود المستقبل بصيغ حضارية لا حصر لها، ولهذا كان ارتباطها بالقرآن الكريم تنم عن تغطية شاملة لكافة المسائل التي تخص الحياة البشرية بقدر من الأساليب والنظم من اجل تحقيق أهدافها في الاستخلاف والاعمار.

ود.عماد الدين يؤكد على هذه المسألة في عرضه للمساحة الكبيرة التي وظفها القرآن الكريم لمواقعة التاريخية سرداً قصصياً لتجارب عدد من الجماعات البشرية، أو استخلاصاً للسنن التاريخية التي تحكم حركة الإنسان، أو عرضاً للمواقف الإنسانية المتغيرة في التاريخ، وقد أريد من هذا العرض بيان الحكمة من وراء تحرك الحدث التاريخي واعتماد مدلولاته في حاضر الأمم ومستقبلها القريب أو البعيد، عبر إثارة الفكر البشري بالتفكير والتساؤل، والإفادة من تجارب الأمم السابقة في تحقيق الأهداف التي رسمها الإسلام(خليل،١٩٨٦،ص٦-٧، خليل،٢٠٠٥ج،ص٨-٩، خليل،٢٠١٦، البعد الحضاري للسيرة النبوية) www.mugtama.com .

والقرآن الكريم وضع للبشرية سلفاً معايير من سنن ثابتة لا تتغير للهزائم والانتصارات التي منيت بها البشرية عبر قرون طويلة، ويضع د.عماد الدين يده على كيفية الإفادة من هذه المعايير، وهي في كيفية قراءة الواقعة التاريخية التي لا تكتسب أهميتها الايجابية إلا إذا استخلص منها القيم الإنسانية والحضارية والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية، والتي أعطت للمجتمعات البشرية سلفاً نتائج محتومة للحكم سلباً أو إيجابا على مواقفه التاريخية لارتباط النتائج بالمقدمات التاريخية ودوامها(خليل،١٩٨٦،ص٨-٩،ص١٠٨-١٠٩).

ويلحظ د.عماد الدين ان القرآن الكريم لم يكتف بثبات هذه القيم واستمراريتها بل حولها إلى دافع حركي فرض على الجماعة البشرية الواعية المؤمنة من تجاوز أخطاء ما سبقها من الأمم، والتعامل الحسن مع قوى الكون والطبيعة، فليس بالقوة والبطش تحيا الأمم وتواصل مسيرتها في العطاء الحضاري، وإنما "بنفسية متماسكة وأخلاقية عالية ونظرة إلى الحياة شاملة، وعلاقات إنسانية، وموقع متقدم مسؤول أمام الله"(خليل،١٩٨٦، ص١٠٩-١١١، ص١١٦-١١٧).

ومع استخلاص القيم والتعامل الحسن لا ينسى د. عماد الدين أن يؤشر عن مميزات أخرى للواقعة التاريخية الأخرى في القرآن الكريم – فهناك أيضا – الرؤية القرآنية للتأريخ وعلاقته بالأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل التي جعلها متوافقة ووحدة زمنية "حيوية" متصلة لا انفصال بينهما تحكمها قوانين واحدة، فالرؤية التي تحيط بالماضي يمكن أن يرسم على ضوئها الحياة الحاضرة والمستقبل(خليل،١٩٨٦، ص١٤).

وهناك الشمولية والموقف الموضوعي في تجاوز الرؤية التجزيئية إزاء القوى الفاعلة في التأريخ، العقلية والوجدانية، والروحية والمادية، والطبيعية والغيبية، إذ لا يمكن في الرؤية القرآنية أن نجد ثمة انفصاماً بين القيم الروحية عن القيم المادية والعقلية بل تعمل سوية بانسجام وتوافق تام " ذلك ان القيم الروحية في الإسلام ليست مجرد ممارسات فردية شعائرية

ISSN. 1815-8854

بالمعنى اللاهوتي، بل هي قيم ذات جذور عريضة وارتباط متين بقلب العالم، وحركة التاريخ، وبواقع الحياة البشرية والوجود الجماعي على السواء"(خليل،١٩٨٦، ص١٦-١٧).

فالقرآن الكريم هو ما منح الرسول(ﷺ)منهجاً إيمانياً في التعامل مع الواقعة التاريخية، التي تميزت برؤيتها الشمولية، وتجاوزها الرؤية التجزئية إزاء القيم والقوانين التي وصفت بديمومتها واستمراريتها والتي اعتمدت في تفسير حركة التاريخ.

فواقعة الهجرة رغم الم وقعها على الرسول(ﷺ)على ارض الواقع لتركه مكة إلا أن القرآن الكريم بين للرسول(ﷺ) وللمسلمين من بعده، ان الخير والسعة قد يكون في ارض أخرى يبحثون فيها عن مصائرهم ويصنعون فيها تأريخهم، وهذا ما حصل مع الرسول(ﷺ) الذي استطاع بفضل ذلك من تحويل هذه الواقعة إلى واقعة ايجابية في مجالات العقيدة والسياسة والحضارة، فلولا الهجرة لما تمكن من بناء دولة الإسلام التي شع نورها إلى مشارف الأرض ومغاربها.

ويذكر د.عماد الدين وقائع تاريخية أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم كواقعة (حنين) و(أُحد) التي يصفهما القرآن الكريم بالهزيمة ويخاطب المسلمين الذين شهدوا كلتا الواقعتين بأنهم هم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة، لكنه في الوق ذاته يُعلم المسلمين من خلال هاتين الواقعتين أن يستفيدوا من هذا الخطأ وان لا يبرروه في تفسير الأشياء والوقائع بل عليهم أن يتقدموا نحو صياغة ايجابية حضارية للعالم المرتجى(خليل،١٩٨٦،ص١٢).

كما كان للأحاديث النبوية دورها في تعزيز معطيات الواقعة التاريخية في القرآن الكريم، إذ يذكر د.عماد الدين ان هذه المعطيات عادة ما تأتي بفجوات أو تحيز وان تكون قاصرة عن وضع يدها وتفسيرها لكل الوقائع، لأنّ التأريخ علم أنساني احتمالي ليس منضبطاً كالعلوم الصرفة، فتأتي الأحاديث –هاهنا- "لكي تملأ الفجوات الناقصة حيناً، وتؤكد أو تنفي نتائج البحث التاريخي الوضعي حيناً آخر، ولكي تعدل من جهة ثالثة تحريفات الكتب الدينية السابقة لحشود الوقائع التاريخية"، ويزيد على ذلك بأن الأحاديث النبوية قدمت "شبكة من التصورات والقيم ومفردات السلوك الفردي والجماعي والتي تعين على تشكيل الحضارات ونموها، أو انهيارها وأفولها"(خليل والرزو،٢٠٠٤،ص١١).

ويستخلص د.عماد الدين إلى القول في مدى ترابط الإسلام بحركة التأريخ والتوافق مع قوانينه ونواميس الكون من حوله، بقوله" يمثل الإسلام موقفاً في قمة حركة التاريخ لأنه دعوة لاكتشاف قوانين الحركة والتوافق معها، ليس مع حركة التاريخ فحسب، كما تسعى الماركسية، ولكن مع نواميس الكون والعالم كله"(خليل،١٩٨٥،ص٢٠). كما يرى ان في دراسة التاريخ " محاولة للبحث عن الذات، للعثور على الهوية الضائعة في هذا العالم، للتجذر في الخصائص وتعميق الملامح والخصوصيات، انه بشكل من الإشكال، محاولة لوضع اليد على نقاط التألق والمعطيات الإنسانية والرصيد الحضاري من اجل استعادة الثقة بالذات في لحظات الصراع الحضاري الراهن التي تتطلب ثقلاً نوعياً للأمم والشعوب"(خليل والرزو،٢٠٠٤،ص٧).

ISSN. 1815-8854

ثانيا. السنة (الحديث النبوي)

إن التأسيسات القرآنية التي ذكرت لا يخلو أثرها في أقوال الرسول(ﷺ) وأفعاله وإدارته للمجتمع الإسلامي، فالسنة "وحدة مركبة، وبرنامج عمل يتميز بالشمولية والترابط، ويوازي حياة المسلم نفسها بكل تفاصيلها ونبضاتها، بل إنها –بعبارة أكثر دقة– يتعاشق معها كما تتعاشق الروح مع الجسد البشري، مع جملته العصبية، ودمه، وخلاياه"(خليل،٢٠١٣،ص٨٦).

وقد آثرنا في هذا الجزء من الموضوع ذكر التأسيسات الحضارية في الحديث النبوي، ويلحظ د.عماد الدين ان هناك كم من الأحاديث مارست دوراً مهماً في معالجة وإيضاح الموضوعات المعنية بنهوض الأمم والجماعات والدول والحضارات سواء التي لم يتطرق إليها القرآن الكريم أم تطرق إليها لكنها بحاجة إلى إيضاح وتفسير، وفي حين أخر سكتت عن موضوعات أخرى أشبعها القرآن الكريم عرضا(خليل والرزو،٢٠٠٤،ص١٠-١١).

وبسبب ضخامة المعطى النبوي الذي هو امتداد للمعطى القرآني فقد قسم د.عماد الدين الأحاديث النبوية وفق سياقات موضوعية، فهناك **العقدية** التي تخص أحاديث التوحيد، والتوكل على الله، والجهاد، والعبادات والفرائض...الخ، وهناك **الدعوية** التي تخص أحاديث التفقه في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الابتلاء، وملاحقة البدع والمبتدعين...الخ، والأحاديث ذات السياق **السياسي** والتي تتحدث عن تحمل الحكام للمسؤولية، واختيار الحكام، والتزام الشورى، والتزام الجماعة، وتجاوز العصبية والفتن...الخ، أما السياق **الأخلاقي** فيتناول أحاديث حسن الخلق، وأداء الأمانة، والتواضع، والاحتشام والحياء، والتعفف، والحجاب...الخ، في حين تناولت الأحاديث ذات السياق **الاجتماعي** تقييم الإنسان بمدى إيمانه، واحترام إنسانية الإنسان، وحرية العقيدة، والتراحم والتناصح، وحسن التعامل، والسلم والتكافل الاجتماعي...الخ، وأخيرا الأحاديث ذات السياق **الحضاري** فتتحدث عن التوافق مع السنن والفطرة، والتوازن بين الإيمان والحكمة، وضمان حق التعليم والإحسان في الأداء، والإحساس بالمسؤولية...الخ(خليل والرزو،ص٢٠٠٤،ص٢٣-٢٤).

ويبدأ د.عماد الدين بأحد الملامح الأساسية للجانب العقدي، إلا وهو التوحيد المطلق لله، فحديث الرسول(ﷺ) (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) (القشيري،د.ت،ج١،ص٦٢). وقوله (أن يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) (بن حنبل،٢٠٠١،ج١٤، ص٣٩٩). إنما هو نموذج إسلامي اختلف فيه عن الديانات الأخرى، فالتوحيد لم يقف عند التصور الديني فحسب وإنما جعل منه ثورة لتحرير الإنسان من العبودية، وتعبير مطلق عن توازن ثابت مابين الإيمان وبين حياة يحياها الإنسان دائما وأبداً.

ISSN. 1815-8854

وأحاديث شريفة في موضوعات ذات بعد حضاري ضمن السياقات الأخرى:

فعن اجتياز مراحل الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان :

(لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم) (بن حنبل،٢٠٠١،ج١٥،ص٤٠).

(إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)(القشيري،د.ت،ج٣،ص١٥٤٨).

وعن إشاعة العدل الاجتماعي والرحمة وحسن الخلق:

(الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل) (البخاري، ١٤٢٢هـ،ج٧، ص٦٢).

(ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وان صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)(الترمذي،د.ت،ج٤،ص٣٦٣).

(من لا يرحم لا يُرحم)(بن حنبل،٢٠٠١،ج١٢،ص١٧).

وعن البذل وحسن العمل والأعمال:

(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كانت له به صدقة)(القشيري، د.ت،ج٣،ص١١٨٩).

(أحب الأعمال إلى الله تعالى ادومها وان قل) (القشيري،د.ت،ج١،ص٥٤١).

وعن المعرفة والحق والرفق والحياة:

(لا يزال أمر هذهالأمة مقارباً أو قواماً ما لم ينظروا في الولدان والقدر)(الطبري،٢٠٠٣،ص٦٩٧).

(ستكون أثرة وأمور تنكرونها، قالوا يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم)(البخاري،١٤٢٢هـ،ج٤،ص١٩٩).

(إن الله يحب الرفق في الأمر كله)(البخاري،١٤٢٢هـ،ج٨،ص٨٤).

(لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم)(الترمذي،١٩٩٨،ج٣،ص٦٨).

إن هذه الأحاديث وغيرها تغذي أكثر من سياق في وقت واحد، وتؤشر على جملة من مقومات الفعل الحضاري إذا ما عملت عملها في امة أو جماعة من الناس، ساقتهم إلى النهوض والتقدم، وعمقت لديهم الثوابت الإيمانية، وأنزلت القرآن لديهم إلى ارض الواقع، وحولته إلى ثقافة اجتماعية وأخلاقية وروحية وسلوكية وعمرانية، فكان البناء الحضاري وإحداث عملية التغيير لا يتم إلا بالتفاعل مع السنة النبوية لان فيها محركاً لطاقات المجتمع وموجهاً لممارسة عملية البناء.

مجلة دراسات موصلية

مجلة دورية علمية محكمة ، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

المحور الثاني: التأسيسات الحضارية للسيرة النبوية

السيرة النبوية هي ترجمة عملية لمبادئ الإسلام وأخلاقه، أو تطبيق فعلي لشريعته ومنهاجه، إذ حرص الرسول(ﷺ) على إرساء منظومة القيم الإسلامية وجعلها لبنة أساسية في بناء الإنسانية، وهي بحد ذاتها سمة من سمات المنهج النبوي وشاهد في سيرته، لذا اقتضى دراسة السيرة بوعي وفهم، وان تكون الدراسة بهدف إعادة البناء الحضاري للأمة لا لسرد التفاصيل والأحداث.

ويرى د.عماد الدين إن سيرة الرسول(ﷺ) كانت تتحرك وفق ثلاث دوائر لا تخلو من أبعادها الحضارية، تتداخل أحيانا مع بعضها البعض وأحيانا تتسع صوب الخارج لتشمل مزيدا من المساحات، بدأت بالإنسان ومرت بالدولة ثم انتهت إلى الحضارة التي حظيت بنورها مساحة واسعة من العالم القديم والمعاصر فجاءت كالآتي:

أولا. الإنسان

بدأت المرحلة الأولى ببناء الإنسان بالعقيدة والتي بدأت منذ لقاء الرسول(ﷺ) بالوحي واستمرت خلال الفترة المكية كلها، إذ ركزت الآيات القرآنية التي نزلت في تلك الفترة على توضيح عقيدة المسلمين علماً وعملاً ودعوتهم إلى التوحيد ، وإنذارهم بالبعث، فضلاً عن بيان فضل الله على الإنسان لقوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق:٢) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٤-٥)، فكان الرسول(ﷺ) يتحرك بأصحابه وفقالتصور التي جاءت به تلك الآيات، لتحرك بواقع الإنسان وتجعله يتعامل معها تعاملاً حركياً بعيداً عن النظريات والجدل والفلسفات (خليل،١٩٨٣،ص٩٩، خليل،٢٠٠٥ج،ص٤٣، خليل،٢٠٠٧،السيرة النبوية مشروعاً حضارياً) . www.midad.com

إن توجيه الرسول(ﷺ) للإنسان فرداً وجماعة إلى عبادة الله قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، تلك العبادة التي لا تقتصر على زمان أو مكان معين بل هي تمتد لكل مساحات الحياة البشرية الخاصة والعامة، الفردية والجماعية، الظاهرة والخفية، المادية والروحية، إنما أراد أن يجعل من الإنسان بهذه العبادة سبيلا لتوجيه كافة أنشطته الحضارية(خليل،١٩٨٦،ص١٧٩-١٨٦).

وكان من أهم مستلزمات عبودية الله تعالى هو التكليف فلا معنى لعبودية الله تعالى دون ان يكون هناك تكليف ولكن تطلب من الإنسان وهو يؤديها الصبر وتحمل المشاق ومجاهدة النفس، وان يجعلها خالصة لوجه الله ليبلغ فيها أعلى مراتب القبول، فيحصد ثمارها كما يقول د.عماد الدين "ثمار حلوة كالرحيق المختوم"(خليل،١٩٨٦،ص١٨٩).

لذلك كانت سيرة الرسول(ﷺ) تركز على بناء الإنسان الموحد، الإنسان الذي يتحرك تحت شعار (لا اله إلا الله) المستسلم لأوامر الله تعالى في العقيدة والعمل ليصبح مسلماً وليحوله هذا الدين من الظلمات إلى النور، ومن الضعف إلى القوة، ومن الذلة إلى العزة(خليل،١٩٨٦،ص١٩٠).

ISSN. 1815-8854

لم يهتم الرسول(ﷺ) بالجانب الروحي في بناء الإنسان فحسب بل كانت سيرته شاملة متكاملة، لاستقاء مادتها من تكامل القرآن الكريم، فقد سعى الرسول(ﷺ) إلى تحرير عقل الإنسان من اسر الإتباع الأعمى وعصبية التقاليد الموروثة الباعثة على الاقتداء والإتباع التي لا تتوافق مع العقل والمنطق، فمن شروط صحة إيمان المسلم بالله وما يتبعه من أمور اعتقاديه أخرى أن تقوم على أساس من اليقين والفكر الحر لا بالتأثر بالأعراف والتقاليد(البوطي،٢٠٠٧،ص٧٥). كما ان الفكرة أو السلوك المأخوذ عن طريق التقليد لا يجد له رسوخاً في القلب والعقل مما يولد انحرافاً في عقيدة المقلد(نوري،٢٠٠٦،ص٨٨). لذلك جاء هذا الحرص من الرسول(ﷺ)ووجده د.عماد الدين بأنه كان "رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية وانقلاباً جذرياً على مواصفات العصر وممارساته ومطامحه القريبة العاجلة"(خليل،١٩٨٣،ص٩٩).

والقرآن الكريم عندما حدثنا عن هذا الإتباع والتقليد في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(الزخرف:٢٢-٢٤). إنما أراد أن يدعو الإنسان إلى التوحيد وتركالشرك تكفيراً وتسفيهاً لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وان يحقق الإنسان بناء ذاته بالقيم بدلاً من التقليد، إذ كيف يتسنى لأمة أن تقيم حضارة لها وهي تقلد غيرها؟.

لم يكن هذا ما حصده الرسول(ﷺ) خلال العهد الأول من بعثته فحسب بل استطاع الرسول(ﷺ) من هدم بعض المعتقدات الاجتماعية التي كانت تسيطر على عقلية الإنسان والتي لا تتوافق مع العقيدة كالعصبية الاجتماعية الضيقة الحزبية والقبلية ومسائل الرقيق والمرأة، وتحريم الخمر والميسر والزنا والربا، والدعوة إلى المساواة بين الغني والفقير، فضلاً عن دعوته لأمور شملت حياتهم في جميع مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فحرص الرسول(ﷺ) على خلق إنسان ملتزمتعبدياً منضبط سلوكياً إنما أريد به أن يكون مهيأ للمرحلة القادمة التي ستكون بلا شك أكثر تعقيداً لما فيها من متطلبات الفترة الجديدة التي لم يعهدها الإنسان المكي من أنشطة سياسية ودعوية واجتماعية واقتصادية التي يراها د.عماد الدين أنشطة ستعيد صياغة سعي الإنسان في العالم وهي تدفعه نحو هدفه الحضاري (خليل ، ٢٠٠٢أ ، ص٤٤-٤٥) .

وفي نهاية المطاف حققت دعوة الرسول(ﷺ) في مكة والتي استمرت ثلاثة عشر عاماً وهي تدور حول البناء العقائدي مفاهيم وممارسة، أول وأعظم انجاز حضاري إلا وهو التوحيد البناء في مواجهة الشرك الهدام والتعدد وهي مسألة رآها د.عماد الدين انها أعانت على تعزيز واغناء شبكة الشروط الضرورية لنشوء الحضارة الجديدة (خليل،٢٠٠٥أ،ص٥٤،خليل، ٢٠٠٧ج السيرة النبوية مشروعاً حضارياً) www.midad.com ، بعد أن خلقت من تلك المرحلة إنساناً قادراً على حمل أعباء الرسالة الجديدة للعالم اجمع بكل ما تحمله من إبعاد متعددة مراعية مرحلة النضج العقلي والحضاري التي بلغتها البشرية نحو خطوة أخرى ألا وهي بناء الدولة.

ISSN. 1815-8854

ثانياً : الدولة

استطاع الرسول(ﷺ) أن يتجاوز الدائرة الأولى في بناء الإنسان بعد أن بذل جهوداً تكللت بالظفر، رغم العوائق والأذى والاضطهاد والقمع الذي لحق به وبأصحابه، لينتقل صوب الدائرة أو المرحلة الثانية حيث الدولة وبناء المجتمع وفق المنهج الإسلامي ونظام الحياة الإسلامية، وبناء دولة منضبطة بقيم وتعاليم السماء، تحمي جهود الإنسان وهو يؤدي وظيفته الحضارية، وكان ذلك إحدى نقاط الارتكاز في فكر د.عماد الدين، فهو يرى انه لابد أن يكون للإنسان دولة توفر له إمكانيات الاستمرار لاسيما الأرضية الصالحة التي تحفظ له طاقته الإنسانية وهو يسخرها بما توفر له من إمكانيات القوة والتنظيم في اعمارها وتنفيذ الفعل الحضاري فيها المنضبطة بتعاليم الوحي، بدلا من استنزاف طاقته في مواجهة قيم وأخلاقيات جاهلية لا يمكن لها بأي حال أن تهادن من رفض قيمها الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها (خليل،١٩٨٣،ص١٢٧-١٢٨).

وبعد ان أدرك الرسول(ﷺ) ان مكة لا تصلح فيها الدولة راح يبحث له عن بديل ووجد في يثرب مستقره الحضاري، وكان نجاحه في تأسيس دولة له في وسط صحراء يعج فيها الشرك والجهل هو اخطر كسب حضاري حصل عليه الرسول(ﷺ)، فكانت الهجرة التي نقلت المسلمين إلى الدائرة الثانية، وقد حققت معها مكاسب عدة للإنسان فهي لم تخلصه من الأذى والاستهزاء فحسب بل انها وحدته وإعانته على إقامة دولة بمفهومها الحضاري في بلد آمن (المصري، د.ت،ص١٨٧).

ويقف د.عماد الدين عند حادثة الهجرة ليرى انها صاغت حدثها وضمنت تحقيق هدفها بفعل الهي تكون من خلال ثلاثة عناصر الفعل التاريخي والسببية التاريخية والفعل أو الإرادة الإلهية، أي " لقاء بين الله والإنسان والطبيعة، بما فيها الزمن"، هذا الحوار بين القيم العليا والوجود السفلي حرك حدث الهجرة كما حرك بقية الحركات في التاريخ، وهي بلا شك عناصر تحرك الإنسان الضائع الحائر المعذب المأسور، لتحقق رغبته في التوحد والائتمان الذاتي، فتصنع تاريخه وتقرر مصيره، وهي تصب في مجرى مبادئ الدين الجديد(خليل،١٩٨٣،ص١٤٠-١٤٣، خليل،١٩٨٦،ص١٦).

وكان مما ميز الحركة التاريخية المرتبطة بالدعوة التي صاغتها الهجرة للإنسان فرداً وجماعة، انها ظلت بعيدة عن أي صراع ضدي أو نقيض بشري من مستويات شتى: نفسي وفكري وعقدي ووجداني وعرقي واجتماعي وسياسي واقتصادي ...الخ ، ويلحظ د.عماد الدين انه في الوقت الذي يجد فيه انها "محاولة للالتئام والتوحد والاستقطاب والتجمع"، فأنه يخالف معطيات الفلاسفة والمفكرين الماركسيين الذين نادوا بما سماه "صراع النقيضين"، عندما قصروا النقائض على الجانب العقلي(كهيغل) أو المادي الاقتصادي(كانجلز وماركس) لان حدث الهجرة انبثق عن موقف دعوي إسلامي اشترط فيه ترابط القيم الروحية والمادية والطبيعية والغيبية ولا يمكن أن يكون هناك ثمة انفصال بين احدهم والأخر (خليل، ١٩٨٣،ص١٤٣-١٤٤، خليل،١٩٨٦،ص١٧).

ISSN. 1815-8854

وبهذا نستطيع أن نعد الهجرة انقلاباً على كل المعطيات الماضية فهي ليست هجرة من ارض إلى ارض أو استبدال أهل بغيرهم، وانما هي هجرة من قيم قيدت حركة الإيمان، وغيبت دور الفعل الحضاري للإنسان اثر الصدام المستمر، إلى ارض سمحت للإنسان أن يصنع فيها تاريخه الحضاري وهو ممزوج بقيم إيمانية.

وفور دخول الرسول(ﷺ) المدينة وضع خلالها معالم أساسية للمجتمع الإسلامي في كل أبعادها الفردية والجماعية العامة والخاصة، ويجد د.عماد الدين إن الرسول(ﷺ)كان مدركا تماما ان المسلمين في هذه المرحلة أصبحوا أكثر نضجا عقديا وأكثر تهيأ نفسي وذهني لذلك وانهم سيكونون متقبلين لأي تشريع يخالف نمط حياتهم التي عهدوها من قبل لا بل سيكونون أكثر إيمانا بأن هذا التغيير الذي جاء وحول حياتهم وجعلها تسير وفق نظام وحدود وعلاقات مرسومه، هو الحق المطلق والخير والصواب(خليل،٢٠٠٥ج،ص٤٦)، وهو يحاكيها بمنهج نبوي قد تمكن من بناء إنسان مؤهل لحمل أعباء الاستخلاف في الأرض، يدفع بمشروع الإسلام وهو يؤدي وظائفه في العبادة والإعمار والإنقاذ والتعارف إلى عالم الحضارة.

وبناء الرسول(ﷺ) للمسجد جاء ليكون محورا رئيسا في حياة الأمة، ومطلقاً أساساً لكل فعالياتها، إذ كان مكانا للعبادة يتلقى فيها المسلم منهجا حقيقا في زيادة تربيته الروحية وتقويم سلوكه، ومركزا للتعليم والتوجيه والتفقه في الدين، ومركزا لاستقبال الوفود التي كانت تأتي للرسول(ﷺ) لإغراض مختلفة، كما جعل بمثابة مؤسسة سياسية عسكرية يتم من خلاله إدارة شؤون الدولة في الداخل والخارج ومجالس التشريع، وندوة للتدارس الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، ومؤسسة تعزز القيم التي تحفظ أواصر الأخوة الإسلامية والخدمة الاجتماعية من جمع التبرعات ومعونة المحتاجين، ومكانا لإيواء الفقراء والغرباء الذين لا يجدون مأوى لهم (خليل،٢٠٠٥ج،ص١٤٩، نوري،٢٠٠٦،ص١٨٤-١٨٩، السباعي،٢٠٠٧,٤٤-٤٥).

وبهذا يرى د.عماد الدين إن المسجد قدم للمسلم مهمة اتسمت بما اتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، مهمة روحية وسياسية وعسكرية وتعليمية واجتماعية، مثل ّ نقطة التقاء الأمة ووحدتها، وانعكس أثره على بناء الأسرة والجماعة اجتماعيا وصهرها في وحدة فكرية وهم يتابعون شؤون حياتهم في حلقات العلم والبيع والشراء والقضاء والعبادة وإقامة المناسبات المختلفة (خليل،١٩٨٣ ، ص٤٩)، ومن ثم ّ فإن هذا التكامل الذي جاء به المسجد خلص الإنسان اليثربي من حالة التشرذم التي كان يعيشها تحت وطأة القبيلة وهي تحاول أن تسلط أحكامها وأعرافها الجاهلية على مقدرات حياته، وتجسد فيه مفهوم الدولة المدنية التي وجد فيها الإنسان ضالته بعد أن تخلص من ضياعه الروحي وتشتته الفكري(خليل،١٩٨٣،ص١٤٩، خليل،٢٠٠٨،ص١٢).

أعلن الرسول(ﷺ) بعد ذلك عن إصداره الوثيقة لتنظيم العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل المدينة والتخطيط لمهام القيادة بينه وبين المجتمع الجديد، وقد نصت على بنود متعددة جاءت في مجملها تتحدث عن الأمة الواحدة وأهل المدينة، والتنظيم القبلي والأمة، والأمة وحقوق الأفراد، والأمة والقبائل اليهودية، وسلطات الرسول(ﷺ) في قيادة الأمة وغيرها(البوطي،٢٠٠٧،ص١٥١، الملاح،د.ت،ص٢٩٨-٣٠٨).

ISSN. 1815-8854

يجد د.عماد الدين في الوثيقة برنامجاً مرحلياً لتثبيت حدود دولة الإسلام في المدينة وفق إستراتيجية تشريعية شاملة(خليل،٢٠٠٥ج،ص٤٧)، انطلقت من مسلمات الوحي وهي توافق المبادئ العامة وترسم معالم حياة المسلمين ليس على مستوى العبادة فحسب بل تنظم علاقاتهم كامة، بين الأفراد مع بعضهم، والكتل والمكونات المختلفة فيما بينهم، وشؤون السلم والحرب، وعلاقات الدولة مع غيرها، كما إن إقرار الوثيقة لجماعة المسلمين بأنهم امة واحدة من دون الناس انما هو إلغاء للحدود القبلية أو إنهاء لوجودها الرسمي في حدود الدولة الجديدة(خليل،١٩٨٣،ص١٥١)، وهذا المفهوم كان مغيباً في الجزيرة العربية لذلك فان إحياء الإسلام لهذا المفهوم إنما أريد أن يكون الدين هو الرابطة العقدية والفكرية التي تحكم علاقات الأمة بدلا من الجاهليات والعصبيات القديمة.

كما إن إقرار الوثيقة لمفهوم الحرية الدينية بمعناه الواسع قضى على التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات وحوّل التجمعات اليهودية إلى جماعات فاعلة تحس بمواطنتها في الدولة الإسلامية تساند وتدفع الخطر عنها أثناء صراعها مع العدو الوثني(خليل، ٢٠٠٥ج،ص١٥١-١٥٢).

وهذا يعني ان تطبيق نصوص الوثيقة سوف يتم تجاهل الأعراف القبلية التي فتت وحدة المسلمين، وجعل التزام المسلمين بالتشريع امة واحدة، وذابت معها جميع الفوارق والمميزات التي كانت تحكم فيما بينهم واضمحلت ضمن نطاق الوحدة الشاملة، وارتبطوا فيما بينهم برابطة الإسلام(سالم،د.ت،ص٦١)، وهذا ما اعتبره د.عماد الدين تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع السياسية لان هذه المرحلة اقتضت أن يكون الاندماج في الأمة قائماً على أساس عقائدي لا على الأعراف القبلية، ثم لاعتبارات إدارية كان يقتضي الترابط مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في الدولة، ورد الاختلاف في مختلف الأمور بحكم القانون إلى الدولة لا إلى القبيلة(خليل،١٩٨٣،ص١٥٢).

إلا انه لم يخف امتعاضه من محاولات بعض الباحثين الغربيين مثل بروكلمان وفلهاوزن وغيرهم (النعيم،١٩٩٧، ص١٢٦) ، الذين حاولوا أن يصوروا الوثيقة انها كل شي في البناء التشريعي للدولة الإسلامية، متناسين أو متغافلين ثقل القرآن الكريم والسنة النبوية في هذا البناء، وما الوثيقة إلا جزء من هذا البناء، ويعتبر د.عماد الدين كل من يبالغ في تحميل الوثيقة الثقل الأكبر في التشريع يقع خطأ تاريخي وموضوعي لأنه "يحجب الحجم الحقيقي للتشريع القرآني الذي كان يتمخض باستمرار عن مزيد من القوانين والتشريعات، ويقود الباحث بالتالي إلى الرؤية الغربية الوضعية التي تجد في الوثيقة محاولة بشرية أولية من المحاولات التي قام بها المشرعون على مدار التاريخ لتنظيم شؤون دولهم الناشئة"(خليل،٢٠٠٥ج،ص٤٧)، وأين دور الوحي الرباني الإلهي من هذه الرؤية وهو يلقن الرسول(ﷺ) التوجيهات والضوابط وينشئ على أساسه لحاجات الأمة الحلول والتنظيمات والتشريعات؟.. وأين موقع الدولة الإسلامية إذا ما جردت من بعدها الروحي عن غيرها من الحضارات المادية على مختلف صورها في الشرق والغرب وهي تعاني ما تعاني من عمى روحي وانبهار مادي وقصور منهجي؟.

ويعرج د.عماد الدين على مسألة المؤاخاة ويجد انها خطوة رائدة من خطى الرسول(ﷺ) وهو ينسج خيوط مشروعه الحضاري، عندما جاءت المؤاخاة لتعالج أزمة معاشية اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة، بالتآخي والتآلف

ISSN. 1815-8854

مع الأنصار ريثما تتحسن أحوالهم الاجتماعية وتستقر أوضاعهم المالية، وقد عبر القرآن الكريم عن روح التآلف التي حدثت بين المهاجرين والأنصار ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقوله ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٣)، وقد اتخذ الرسول(ﷺ) من هذه الخطوة ومساندة بعضهم البعض أساسا لبناء مجتمع يسوده العدالة الاجتماعية، ويرى د.عماد الدين ان تجربة المؤاخاة نجحت باستكمال الشروط من وجود الأرضية التي قامت عليها الأخوة الإسلامية، والقيادة التي خططت ونفذت، ومجتمع عادل سليم قائم على أساس تحقيق مبدأ العدالة بين أفراده تجمعهم عقيدة التقوا عليها وامنوا بها(خليل،١٩٨٣،ص١٥٢-١٥٦).

فنجاح الرسول(ﷺ) في وصل الأمة بعضها مع بعض الأخر بالأخاء، ذاب معها (الأنا) التي طالما كانت تؤجج العصبيات الجاهلية، وأصبح الفرد الذي كان يتحرك في مجتمع القبيلة بروح ومصالح قبيلته، يتحرك بروح الجماعة ومصالحها وآمالها وهو يرى فيها كيانه وامتداده.

وبعد ان استكملت الدولة مقومات بنائها، واستكمل المسلمون نموهم العقدي وزادت أعدادهم، وأصبحت العقيدة هي من تحكم العلاقات بين القبائل العربية لا تقليد النسب والقربى، واستمرار تصعيد قريش لعدائها واضطهادها للمسلمين، ونزول الآيات القرآنية التي تؤذن ببدء القتال المسلح، وتصاعد وتيرة المعارك والغزوات بين المسلمين والقوى الوثنية "حتم على الرسول(ﷺ) ان ينمي القدرات وان يدفع أتباعه إلى مزيد من التدريب والمهارة العسكرية في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بالدولة الجديدة إحاطة السور بالمعصم"(خليل،١٩٨٣،ص١٥٩-١٦٠).

ويرى د.عماد الدين ان خطورة المرحلة (أي مرحلة انتقال الدعوة من طابعها السلمي إلى القتالي) جعلت الرسول(ﷺ) يقدم على بناء مؤسسة عسكرية تحل محل المؤسسة القبلية التقليدية وتكون موازية للمؤسسة السياسية التي ثبت أركانها في دولته الجديدة، مؤسسة تكون قادرة على تكوين مقاتل مسلم يمتلك المهارات العسكرية اللازمة لمواجهة التهديدات ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال:٦٠) ،معتمداً في تكوينه على عاملين متوازيين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

أما العامل الأول فهو سعي الرسول(ﷺ) إلى رفع معنويات المقاتلين بمنحهم الأمل اليقيني بالنصر أو الجنة، وظل هذا الأمل المحرك الأساس الذي يحرك ويفجر طاقات المقاتل في ساحات القتال، واهتم العامل الثاني في كيفية إعداد قوة المسلمين وتدريبهم على الفنون القتالية المختلفة براً وبحراً، والاعتماد على طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء شباباً وصبياناً وشيوخاً وربما النساء أيضا(خليل،١٩٨٣،ص١٦٠-١٦١).

يلحظ د.عماد الدين في الإجراءات السابقة أنها رسمت طريق الدولة الإسلامية بعد ان وضع القرآن الكريم وسنة رسوله(ﷺ) قواعدها، وحولت السيرة معطيات الشريعة التي أخذت تنمو وتتسع يوما بعد يوم إلى ممارسة منظورة، وجعلتها تنفذ إلى قلب الواقع، ومكنتها من بناء الإنسان المتحضر والدولة العقدية، وهذه التشريعات لم تقم بطرق مجردة وأساليب بعيدة عن واقع الحياة البشرية آنذاك، بل انها قامت بالأسلوب نفسه الذي قامت به الآيات المكية وهي تبني الإنسان

ISSN. 1815-8854

بالعقيدة، وترتبط وتحاكي واقعه الحركي بأحاسيسه ووجدانه وكرامته البشرية، ووجد د.عماد الدين أن معطيات هذا الأسلوب جاءت " اشد التصاقاً بحركة المسلمين ونمو دولتهم، وأكثر التحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعاش، وأعمق فهما وإدراكاً لمطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم"(خليل،١٩٨٣،ص١٦٣).

وبذلك تمكن الدين بتشريعاته الذي أصبح المسلمون على استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبله من تنظيم الحياة والتحرر من العوائق والضغوط وتغيير العادات والتقاليد والقيم والمثل، "وتدمير البنى القبلية المتقوقعة للحياة العربية، واحل بدلاً منها وحدة اجتماعية اندمجت في إطارها كافة التشرذمات القبلية والعشائرية، بعض النظر عن مكانتها في السلم الاجتماعي صعوداً أو هبوطاً"(خليل،٢٠١٣،ص١٥٢).

ويخلص د.عماد الدين بذلك إلى القول بأن التكامل التشريعي ثم التكامل العقدي هو ما قاد الإنسان في هذه المرحلة إلى الإحسان في الأداء والإبداع في التنفيذ ثم إلى التفوق الحضاري، عندما اختزل الإنسان الزمن في بناء عالمه الجديد، وتحول من الجاهلية والخرافة إلى التحضر والعقل، ومن الظلمات إلى النور (خليل،٢٠١٣،ص١١٦، خليل، ٢٠٠٥ ج،ص٤٧).

وتلك هي المعادلة المتوازنة التي قدر الإسلام من ترسيخها ان جعل تقبل الإنسان للعقيدة منسجماً مع تقبله لمفهوم الدولة وما ينبثق عنها من مؤسسات مغايرة للمؤسسة القبلية في جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وقادت وحدة العقيدة الأفراد إلى الاندماج في جماعة المسلمين وخلق معها التضامن الإسلامي والموالاة وصدق الإتباع، وتولد معها شعور الانتماء إلى كيان، والوعي بامتلاك حضارة تميزهم عن غيرهم، وهذا كله بلا ريب عزز من ظهور مفهوم الأمة، وأعطى رغبة حقيقة في تنفيذ التشريعات والتعامل بواقعية مع معطيات الزمن والمكان في تحويلها إلى وقائع معاشة وهي تختزل الزمن في دفع الإنسان إلى البناء والإبداع وممارسة دوره الحضاري.

وثمة متطلبات أخرى فضلاً عما سبق قادت الرسول(ﷺ) إلى تحقيق مشروعه الحضاري وبناء الدولة إلا وهو اهتمامه بالجانب المعرفي الذي عده مقياساً لدرجات التقدم والتخلف عند الأفراد أو الشعوب، وأساساً للتنمية والتحضر والنهوض الحضاري عند الأمم، لذلك اهتم به الرسول(ﷺ) وبين فضله وآدابه وحدوده، وحرص على محاربة الجهل والأمية التي كانت منتشرة بين العرب، وما واقعة بدر إلا خير مثال على حرص الرسول على التعلم وزيادة معرفة المسلمين عندما جعل فداء من لا يملك الأموال من الأسرى تعليم عشرة غلمان من غلمان المدينة الكتابة والقراءة (القرضاوي، ٢٠٠٤،ص٤٦-٤٩)، فسيرة الرسول(ﷺ) هي بذاتها سيرة المعرفة والتعليم الإسلامي عندما بلغ مفردات الإسلام جميعها لمن كان حوله من المسلمين بشكل منفتح ومستمر.

كما إن تمكين الإسلام للرسول(ﷺ) من استبدال القيم الجاهلية بقيم ايجابية إما بالتحريم أو إقرار بعضها والتشجيع عليها أو الإعلاء مع مراعاة التدرج في إحداث عملية الاستبدال حتى تتمكن هذه النفوس من تقبل تلك القيم الإسلامية الجديدة(قميحة،١٩٨٤،ص٣٠-٣١)، قد اكسب الإنسان تفاعلاً غيبياً حقق به عملية البناء الحضاري بما زود

ISSN. 1815-8854

العقل من كم هائل من القيم والمعايير الأخلاقية والثقافية والسلوكية والروحية والعمرانية، إلا أن هذه القيم تطلبت من الإنسان "التعامل" معها، وبدون "التعامل" لا يتحقق الانجاز الحضاري والعطاء الإبداعي المتجدد الذي يتجرد عن حدود الزمان والمكان في حل المشكلات الإنسانية(حسنة،١٩٩١،ص٥-٦).

وينتهي د.عماد الدين بالتأكيد على أهم ما حققته جملة هذه الدائرة من إبعاد حضارية بعد أن استكملت دولة الإسلام مستلزمات بنائها القانوني: إنها "**الأمة، والسيادة الخارجية والداخلية، ثم الإقليم**"، الأمة التي انصهر فيها مبدأ عالمية الدعوة فأصبحت قائمة على أساس الفكرة والعقيدة التي " لا يمكن حصرها أو ضبطها لانها لا تحدها لغة أو جنس أو وطن"، والسيادة (داخلية وخارجية) القائمة على الاختيار الحر في اعتناق الفكر لا القسر والإرغام، الاختيار الذي يسهم في تقديس الحرية الإنسانية وجعلها أساس الدولة الفكري والقانوني، ثم الإقليم الذي "اختارته الظروف لها وكان اختياراً موفقاً"(خليل،١٩٨٣،ص١٦٥).

ويغدو "التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد، والوحدة في مواجهة التجزؤ، والدولة في مواجهة القبيلة، والتشريع في مواجهة العرف، والمؤسسة في مواجهة التقاليد، والأمة في مواجهة العشيرة ، والإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد، والمنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن، والمعرفة في مواجهة الجهل والأمية"، والالتزام بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في العقيدة في مواجهة القيم الجاهلية الباعثة على الفوضى والتسيب(خليل،٢٠٠٨،ص١٢-١٣)، ملامح حضارية وجد د.عماد الدين اثر انجازها في ظل الدولة الجديدة، مكنت القادم الجديد من أداء دورها الحضار ي المرسوم، وزرعت في نفسه الإرادة الحرة في اختيار أسلوبه في العمل والإبداع.

ثالثا: الحضارة

إن الحضارة التي نشأت مع دعوة الرسول(ﷺ) في مكة ثم هجرته إلى المدينة المنورة وتأسيسه للدولة الإسلامية، قامت على أساس بناء وصياغة الإنسان صياغة إسلامية تجمع بين أبعادها الجانب الروحي والمادي ليمكن الإنسان من تحقيق أهدافه ومزاولة مهمته في الاستخلاف، فالتوحيد، والوحدة، والدولة، والتشريع، والمؤسسة، والأمة، والإصلاح، والمنهج، والمعرفة، والقيم الايجابية، أسس وفرت البيئة المناسبة لتحريك وتحقيق الفعل الحضاري للمجتمعات الإنسانية، وترجمة قيمها الحضارية في الحياة وقواعدها الحاكمة، وتفعيل هويتها الجامعة، الأمر الذي جعل المشروع الحضاري الذي حققه الرسول(ﷺ) خاصية تميزه عن غيره عندما يقارن بنماذج حضارية أخرى.

ولعل هناك من ينتقد تأخر بعض حلقات الفعل الحضاري بمفهومه التنفيذي إلى عصور أخرى بعد عصر الرسول(ﷺ)، وهذا ماراه د.عماد الدين إنما هو نوع من التعليق الزمني لبعض المفردات من اجل تقديم الأولويات أو ضرورات يتيح لها فرصة تحقيق "ملامحها المستقلة وخصوصياتها الفكرية وتعاملها المتفرد مع الوجود والمصير"(خليل،٢٠٠٥أ،ص٥٦-٥٧).

ISSN. 1815-8854

وبهذا المعنى يرى د.عماد الدين ان من خصائص الحضارة الإسلامية إنها حضارة إيمانية عقدية ملتزمة قامت على التوحيد وجمعت بين الوحي والوجود، منحت المشروع الحضاري شخصيته المتفردة والمتماسكة والمنسجمة مع نواميس الكون والطبيعة، وحمته من التفكك والتبعثر والانهيار، وحققت بالبديل الحضاري للإنسان وظيفته التعبدية والعمرانية، كما منحت للحضارة الإسلاميةهويتها الخصوصية (خليل،٢٠٠٥أ ،ص٦٧-٦٩،خليل،٢٠٠٨،ص١٤،خليل،٢٠٠٥ب ،ص١١٦)، التي هي "مصدر التجمع والتصور، ومنبع الفكر ومنهج الحياة"(الواعي،١٩٨٨،ص٢١١).

إن اطلاع وانفتاح الرسول(ﷺ) على الحضارات الأخرى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم أو المعاصرة له في مناطق وسط الجزيرة العربية وأطرافها، أو عن طريق الفتوحات الإسلامية التي جاءت بعده، يلحظ فيها د.عماد الدين انها منحت الحضارة الإسلامية تقابلاً متوازناً بين الأصالة والانفتاح، الأصالة في تحصين نفسها من الذوبان في حضارات أخرى تدمر ملامحها الحضارية الإسلامية، وفي الوقت نفسه الاستعداد التام للانفتاح على الحضارات الأخرى وهضم معارفها وخبراتها وتحويلها إلى مادة تمنح الحضارة الإسلامية القدرة على النمو والامتداد، دون أن يكون ذلك سبيلا للتأثير على العقائد والأخلاق والعبادات(خليل،٢٠٠٥أ،ص٧٠-٧١، خليل،٢٠٠٢أ،ص٦٧).

وفي ظل هذا المناخ الحضاري الفريد الذي صاغه رسول الله(ﷺ) برزت خاصية التوازن بين الثنائيات المتقابلة، الوحي والوجود، والإيمان والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغياب، والمادة والروح، والقدر والاختيار، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحدة والتنوع...الخ، توازن يحدد موقع الإنسان في العالم والكون فيجعله في موضع وسطي، ويؤكد د.عماد الدين ان الوسطية هنا يعني بها وظيفة الحضارة الإسلامية ودورها عقديا وعملاً في الشهادة على الأمم والحضارات المختلفة لا يجنح فيها صوب اليمين أو اليسار، وهذا ما يتضح في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

ويقف د.عماد الدين عند إحدى الثنائيات المتقابلة (الوحدة والتنوع) ليثبت ان كلاً منهما لا يتنافى أو يتقاطع مع الأخر بل إنهما يتداخلان ويتوازيان ويؤثر احدهما في الأخر، فحضارة الوحدة التي تنبثق عن قواسم مشتركة لا تلغي حضارة التنوع والتغاير في البيئات والأعراف والممارسات الثقافية والأنشطة المعرفية، فارتباط التغاير بالثوابت التوحيدية منح المجتمعات الإنسانية قدرة على الفعل والصيرورة وتحريك المجتمعات الإنسانية نحو تخطي مواقع الركود والسكون والفساد إلى مواطن الإبداع والأصالة(خليل،٢٠٠٢ب،ص٩-١٢).

وثمة خاصية حضارية أخرى أشار إليها وهي الشمولية التي أرسى أسسها الرسول(ﷺ) وأكملها بناة الحضارة من بعده في متابعة كل مفردات الحياة والتوغل في نسيجها " فما ثمة أمر مما يهم العقل أو الروح أو الجسد أو الحس أو الوجدان إلا قالوا فيه كلمتهم وقدموا حسب قدراتهم، وإمكاناتهم، يومها التعبير الثقافي المناسب"(خليل،٢٠٠٥أ،ص٧٤).

ومع الشمولية هنالك الواقعية، إذ يلحظ د.عماد الدين إن ميزة الحضارة الإسلامية لم تأت من ادعائها المثالية أو التغافل عن طبيعة الإنسان الحقيقية، بل انها جاءت من عدم قدرتها على الانفصال عن أرضية العالم وتجاوز الثنائية، ومتابعة حاجات الإنسان وإعانته على السعي في الأرض(خليل،٢٠٠٥أ،ص٧٦).